الكاليفالا

« ملحمة الشعب الفنلندي »

ترجمة: سحبان أحمد مروة
مراجعة: يوسي أرو وكاي أورنبري

دار الحوار
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب: ١١٣/٥٧٢٤ بيروت - لبنان

توطئة

هوذا كتاب الكاليفالا، الذي اصطلح القوم على نعته، بأنه ملحمة الشعب الفنلندي.

بيد أن الملحمة هذه، لا تنتسب إلى شاعر معروف، نظمها كلها، ولا صدرت نصوصها عن مصدر أو راوية واحد، ولا دوّنت أبياتها في زمن غابر، لتكتشف فيما بعد، كما هو الحال مع جلِّ المعروف من ملاحم الشعوب الأخرى.

إنها نصوص تداولتها الناس شفاهياً، كابراً عن كابر، منذ زمان بعيد، مغرق في البعد، وحتى القرن الماضي، حيث تصدّى لجمعها رجل طبيب، اسمه «الياس لونروت»، ثم توفّر على ما جمعه، فاستنسب ما واءم فكرته، واطّرح الكثير، وأضاف، من نظمه هو، الكثير، حتى استوت القطع جميعها، في سياق واحد، ومن ثم في كتاب واحد، في نسيج عجيب، لا أثر فيه للصناعة، ولا للجهد الترميمي المتأخّر.

ولكن الكتاب، لم يصدر في حالته الحاضرة، منذ الطبعة الأولى، التي أصدرها لونروت سنة ١٨٣٥. فهذه الطبعة الأولى، كانت تحتوي على اثنين وثلاثين نشيداً، تشبه ترتيباً ومضموناً؛ الطبعة الثانية النهائية، الصادرة سنة ١٩٤٩؛ بعد رحلات جمع وتسجيل، في مناطق فنلندا الشرقية، وفي منطقة كاريالا (= كاريلي)، التابعة الآن للاتحاد السوفياتي، على وجه التحديد.

جمع لونروت، في رحلاته المتعاقبة، خمسة وستين ألف بيت من الشعر الكاليفالي، أي الشعر الذي ينتمي وزناً، وأحياناً، من حيث عناصره ومزاياه، إلى عالم الكاليفالا. ولكن، وكما أسلفنا، فإن لونروت لم يستسلم للنص، ولا أعيته وفرة ما جمع؛ بل يقال، أن قرابة الثلث، من أبيات هذه الملحمة، قد خضع لقلمه، وما جرى به من تعديل وتحوير، ناهيك بما نظمه هو، ويبلغ السدس، من مجموع أبيات الملحمة، نزولاً على

حكم إحكام البناء واللّحمة، ولكن، ومهما يكن وجه الأمر، فإن الرجل، كان مستطيعاً قادراً ومتمكناً، في مهمته، حتى ليعسر على الباحث، ردّ الدخيل، وتمييز الأصيل عنه. ولونروت، قد شحن الملحمة بقدر من الرّقى والتعاويذ، هائل، حتى أن القارىء لن يقرأ نشيداً، في هذا الكتاب، لا رقية فيه.

انطلق لونروت، إلى مهمته الرائدة، في العقد الثاني من القرن الماضي، في زمان، اضطرمت فيه المشاعر القومية، وازداد فيه الشعور بالهوية الخاصة، وذلك عقب ضمّ فنلندا، إلى روسيا (١٨٠٨ ـ ١٨٠٩). ومن هنا، فإن صدور الكاليفالا، كان علامة ومنعطفاً، في تاريخ الثقافة الفنلندية؛ ليس لأن الملحمة، أتت برهاناً على قدرة اللغة الفنلندية الابداعية وحسب، بل أتت أيضاً، ردّاً على عمر مديد من الازدراء والتعالي، اتسمت بهما نظرة الشعوب، والثقافات المجاورة الأخرى، إلى فنلندا، التي لطالما نُعت شعبها بالبربرية، وبالسقوط من التاريخ، حتى دخلت المسيحية البلاد ـ وقد دخلت متأخِّرة ـ فوقفت موقفاً معادياً، ورافضاً لكل التراث الفنلندي، باعتباره «وثنياً»، على المسيحي الحق إبادته، وطمسه، والترنم بالابتهالات الدينية، بدلاً من التغنّي بأبياته. ولكن الكنيسة، لم تفلح في سعيها، بل ظلّ الشعر الشعبي حياً وسليماً، وإن لم يسلم من دخول عناصر دينية جديدة فيه، كما سيرى القارىء، في النشيد الأخير. فمارياتا، في ذلك النشيد، ليست إلا السيدة العذراء، وابنها، ليس إلا السيد المسيح؛ ولكن الحبل العجائبي، يأتي من ثمرة توت، اقتطفتها الصبيّة العذراء، من الوعر، و«امتلأ الرحم صعوبة».

شعر الكاليفالا شعر شعبي، بكل ما يؤديه اللفظ من معنى. فالمنشدون، ما كانوا من المحترفين، بل كانوا من عامة الناس، غنّوا هذه الأشعار، في لحظات الراحة. ثم إن شعر الكاليفالا، ليس مديحاً يكال لطبقة نبيلة، ولا إشادة بحكّام أو سادة، بل هو شعر نظمته وغنّته العامة، لمتعتها هي. وكما سيلاحظ القارىء، فإن مجتمع الكاليفالا خلو من النخبة والنبلاء، «بمعناها الطبقي»، ولا أبطال فيه، خارج دائرة الشعب؛ كما لاحظ الباحث الماركسي كوسينن، مصيباً.

لقد حاول بعض الباحثين، في فنلندا، تفسير شعر الكاليفالا، بأنه شعر النخبة؛ ولكن كوسينن، يرد، سائلاً: أين هي تلك النخبة؟ وأين هو تاريخها؟ في منطقة كاريالا؟ فيرد الفنلنديون بنظرية تعسفية، شاعت توزيع مصادر الشعر الكاليفالي، على جغرافية فنلندا كلها، وهو زعم، لا أساس له من الصحة.

مجتمع كاليفالا مجتمع غير طبقي. ثم أن الكاليفالا، لا تعرف، أصلاً، مصطلح «مجتمع»، ولا مصطلح «دولة»، بل تعرف الأسرة والعائلة ورابطة النسب؛ (أيذكّرنا، هذا، بشيء؟)، والرجل في الكاليفالا، يرى السقوط من الأسرة موتاً. (تحسن، هنا، المقارنة مع وضع المنبوذ والمتصعلك، في تاريخنا). ورابطة النسب، هي أساس

التنظيم المعيشي، في الكاليفالا كلها، غير أن الكاليفالا، ليست تاريخاً، بل هي «نتاج إبداعي، لأهل كاريالا، وعلى هذا الأساس، يجب التعامل مع شعرها».

هذا، ويمكن للمرء، أن يلاحظ درجات تطور المجتمع، في الكاليفالا. فالقصص الميثولوجي فيها، يمكن ردّه إلى العصور الغابرة، كما يمكن العثور على نصوص، تعود إلى زمان، كانت السلطة فيه للأم؛ ولكن هذه الاشارات تكاد تكون استثناءً في الكاليفالا، لا نهجاً مستمراً.

يصف المفكر انغلز الدرجة الثالثة، من درجات تطور المجتمع «الهمجي»، فيقول، بأنها «الدرجة الأولى، لعصر السيف الحديدي، وفي الوقت نفسه، عصر الفأس والمحراث الحديديين». والسيف، في الكاليفالا، سلاح أبطالها، وإن ظلت، إلى جانبه، الأسلحة الأقدم، كالقوس والنبل والرمح؛ ولكن السيف فقط، هو موضع الإعجاب.

أبطال الكاليفالا، ليسوا آلهة بل بشر. والمخلوقات، الواردة في النص، ليست إلا تشخيصاً ضبابياً، لقوى الطبيعة. وعلى النقيض مباشرة، يجد المرء أبطال الكاليفالا، أشخاصاً ممتلئين حياة و ... را؛ وإن لم تخل شخصياتهم من ملامح، أساسها مفاهيم سحرية، كانت قائمة. أما الآلهة، مثل «اوكو»، فلا تظهر، ولا تتجلّى، بل تمدّ يد العون، أو تمتحن الخلق بالبلاء؛ وفيها من الصفات البشرية الكثير.

أول أبطال الملحمة، اسمه «فايناموينن»، (اختصرناه فاينا)، وهو رجل شامان؛ بما يعني ذلك من علاقة بعالم الغيب، وما يلحق به من ماورائيات. وصاحبنا هذا، رجل حكيم، عازف، وَمُغَنٍّ. والغناء هنا، ليس، كما نعلم، بث لواعج وشكايات خواطر، عصف بها الهوى الجائر، بل هو دخول في الدين؛ فالأغنية رُقية، أو تلاوة سيرة مقدسة. ثم إن غناء أو إنشاد الكاليفالا، لا يقتصر على واحد، بل يلزمه اثنان، يجلس الواحد منهما قبالة الآخر، فيشبكان اليمنى باليسرى، و اليسرى باليمنى، ثم ينشد أحدهما بيتاً، وقد جذب صاحبه إليه، حتى إذا فرغ، انشد الثاني البيت التالي، جاذباً زميله إليه. وهكذا، والعازف يعزف، على «الكانتله»، وهو آلة تشبه القانون، عندنا؛ حتى يَفرغ الاثنان من النشيد، ويُفرغ السمّار دنان الجعة، ويسدل الليل ستره.

البطل الثاني حداد عجيب. قين صناع ماهر، اسمه إيلمارينن، أو إيلماري، ويمثل انفصال الحدادة، كصنعة يدوية، عن الزراعة، لتصير وحدة إنتاج مستقلة. وحداد الملحمة، صنع السامبو، وهي إحدى أعاجيبه، والسامبو طاحونة، صنعها من ريشة وحبة حنطة، وما إلى ذلك من معجزات، مهراً قدمه لسيدة الشمال، كي تزوجه ابنتها. وينتهي الأمر بالسامبو إلى التحطم، على مقربة من شواطىء البلاد، في خبر طويل مبسوط، على مدى عدة أناشيد.

البطل الثالث اسمه اهتي، أو ابن لمي، ولقبه «كاوكو ميالي»، أي ما يقارب قولنا، في العربية، «خليّ البال»، معنىً. واهتي، هذا، شاب أرعن، ظريف، مرح، همه ثالوث اللذة

الأحمر، أي المرأة والخمرة والطعام اللذيذ، فضلاً عن الغزو. وفي إحدى مغامراته، يسقط قتيلاً، ويُقطّع إرباً؛ ولكن أمه، تخف إلى نجدته، فتنزل إلى الهاوية، وتصطاد جثته المبددة، من نهر الهاوية، وتستعيدها، وتلحمها من جديد، وتعيد،إلى ابنها، بفضل العسل السماوي، الروح؛ فيستوي قائماً، ليعود إلى ما كان عليه.

البطل لرابع اسمه كولرفو. وتكاد تكون حكايته منفصلة عما عداها. فهو شاب، ترعرع يتيماً، بسبب عداوة، بين أبيه وعمّه، وكان يحسب أن أهله قد ماتوا؛ ولكنه يعلم، أنهم أحياء، من فتاة أغواها، وفجر بها، ثم تبين له، انها أخته، التي انتحرت، بعد وقوفها على هوية الفتى، الذي كان يضاجعها، منذ قليل؛ وقد ثأر لها، ولأهله، ولطفولته، حتى إذا فرغ من الثار، لم يجد لحياته معنى، فانتحر. تجدر، هنا، الاشارة إلى أن حكاية كولرفو هذه، هي التي أوحت إلى الموسيقار الفنلندي سيبليوس، برائعته، كولرفو، والتي بدأ بها، بعد اجتماعه إلى امرأة، كانت تنشد الشعر الفنلندي، وفقاً للتقاليد القديمة، كما يروي عنه كاتب سيرته تفاتشرنا.

مقابل هؤلاء، وهم الأبرز، تقف بوهيولا، بلاد الشمال، وهي لابلاندا، في أغلب الظن، وعلى رأسها، سيدة اسمها لوهي. ولئن كان أبطال كاريالا، السابقو الذّكر، هم الخير والمرح والصناعة، فإن لوهي وبلادها، تمثل العتمة والشر والإحن.

تنتهي أحداث الملحمة بميلاد ابن مارياتا، الذي سرعان ما نُصّب ملكاً على كاريالا، الأمر الذي أثار حفيظة فاينا، فحمله على ركوب زورقه، ومغادرة البلاد، إلى أجل غير مسمّى، فهو يشترط حاجة الناس إليه، ولكن الناس، كما يبدو، يكفيهم ما هم فيه، ولا يحتاجون رُقى الراقي، ولا تعاويذ الكاهن، إلا في حقل الدعاية والاعلان التجاريين.

وبعد، فهذه ترجمة، قد تم الفراغ منها منذ عقد ونيف، ولم تصدر، قبل الآن، بسبب ظروف خرجت عن الإرادة والطاقة والوُسْع. وهي، بعد، جهد المقل، الذي لم يدّخر جهداً، في الحرص على صحة النقل، وسلامة الأداء، على قدر ما أتاح له الله، من عقل وملكات. وبالطبع، فإن ضرورات الترجمة، معروفة وشهيرة؛ كأن يقدّم المترجم، أو يؤخّر، أو يدمج بيتين ببيت، إلى ما لا نهاية له، من حلول واجتهادات.

ولكن ـ والحق يقال ـ ما كان للمترجم، أن يترجم، ولا أن ينجز عمله هذا، لولا مساهمة حقيقية، من قبل صديقين غاليين؛ اختطفت المنية أولهما، باكراً، وهو «يوسّي آرو»، أستاذ العربية، ورئيس دائرة الاستشراق، في جامعة هلسنكي. والثاني مؤرخ مصر الاسلامية، في الجامعة نفسها، الدكتور كاي أورنبري. أما فضل «أولا مايّا»، زوجتي، في توفيرها الجو الملائم للعمل، فهو أيضاً، مما لا يجوز لعلاقة الزوج بزوجه، أن تسدل عليه ستار التجاهل، والأثرة، والنسيان.

أما أنت أيها القارىء، فصبرك محمود، إن صبرت، وإعراضك مفهوم، إن أدبرت. وإذا

أنت، افتقدت، في هذا الكتاب، أو قل في هذه الترجمة، ضالتـك، فاحتسب قـروشك عنـد من لا تضيـع عنده الأمـانات، الـذي أعدّ، للقـراء المساكين، أجـراً عظيمـاً، ولمتـرجمي السوء، عذاباً أليماً؛ ولا تنسَ، أن المترجم، قد أنفق، مقابل قروشك، أياماً وأعواماً، وهي، في حساب الراغبين بالعيش، مبلغ عظيم.

سحبان أحمد مروة